

الرسالة الشافية

للأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني

(٠٠٠ - ٤٧١ هـ)

[عن نسخة حسين جلي المصورة بمعهد مخطوطات الجامعة العربية]

obeikandi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الشيخ عبد القاهر بن عبد الرحمن رضى الله عنه : الحمد لله رب العالمين حمد الشاكرين ، وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين .
اعلم أن لكل نوع من المعنى نوعاً من اللفظ هو به أخص وأولى ، وضروباً من العبارة هو بتأديته أقوم ، وهو فيه أجلى . ومأخذاً إذا أخذ منه كان إلى الفهم أقرب ، وبالقبول أخلق . وكان السمع له أوعى ، والنفس إليه أميل ؛ وإذا كان الشيء متعلقاً بغيره . ومقيساً على ما سواه . كان من خير ما يستعان به على تقريبه من الأفهام وتقريره فى النفوس أن يوضع له مثال يكشف عن وجهه ويؤنس به . ويكون زمناً عليه بمسكه على المتفهم له والطالب علمه .

وهذه جمل من القول فى بيان عجز العرب حين تحدوا إلى معارضة القرآن ، وإذعانهم وعلمهم أن الذى سمعوه فانت للقوى البشرية ومتجاوز للذى يتسع له ذرع المخلوقين ، وفيما يتصل بذلك مما له اختصاص بعلم أحوال الشعراء والبلغاء ومراتبهم ، وبعلم الأدب جملة . قد تحررت فيها الإيضاح والتبيين وحذوت الكلام حذواً هو بعرف علماء العربية أشبه . وفى طريقهم أذهب ، وإلى الأفهام جملة أقرب ؛ وأسأل الله التوفيق للصواب والعون عليه . والإرشاد إلى كل ما يزلف لديه ، إنه على ما يشاء قدير .

معلوم أن سبيل الكلام سبيل ما يدخله التفاضل . وأن للتفاضل فيه غايات ينأى بعضها عن بعض . ومنازل يملو بعضها بعضاً ، وأن علم ذلك علم يخص أهله ، وأن الأصل والقدوة فيه للعرب . ومن عداهم تبع لهم وقاصر

فيه عنهم ، وأنه لا يجوز أن يدعى للمتأخرين ؛ من الخطباء والبلاء عن زمان النبي - صلى الله عليه وسلم - الذى نزل فيه الوحي ، وكان فيه التحدى أنهم زادوا على أولئك الأولين ، أوكملوا فى علم البلاغة أو تعاطيها لما لم يكملوا له . كيف ونحن نراهم يجهلون^(١) عنهم أنفسهم ، ويبرءون من دعوى المدانة معهم ، فضلاً عن الزيادة عليهم . هذا خالد بن صفوان يقول ، كيف نجاريهم وإنما نحكيهم ، أم كيف نسابقهم وإنما نجرى على ما سبق إلينا من أعراقهم ؟ . ونرى الجاحظ يدعى للعرب الفضل على الأمم كلها فى الخطابة والبلاغة ، وينظر فى ذلك الشعوبية ، ويجهلهم ويسفه أحلامهم فى إنكارهم ذلك ، ويقضى عليهم بالشقوة وبالتهالك فى العصبية ، ويطيل ويطنب ، ثم يقول : « ونحن أبقاك الله إذا ادعينا للعرب الفضل على الأمم كلها فى أصناف البلاغة ، من القصيد والأرجاز ، ومن المنشور والأسجاع ، ومن المزدوج وما لا مزدوج ، فمعنا على أن ذلك لهم شاهد صادق ، من الديباجة الكريمة والرونق العجيب ، والسبك والنحت الذى لا يستطيع أشعر الناس اليوم ولا أرفعهم فى البيان أن يقول مثل ذلك إلا فى اليسير والشئ القليل »^(٢) . انتهى كلامه . والأمر فى ذلك أظهر من أن يخفى ، أو أن ينكره إلا جاهل أو معاند . وإذا ثبت أنهم الأصل والقدرة ، فإن علمهم العلم ؛ فبنا أن ننظر فى دلائل أحوالهم وأقوالهم حين تلى عليهم القرآن وتحدوا إليه ، ومثلت مسامعهم من المطالبة بأن يأتوا بمثله ومن التقرير بالعجز عنه ، وبت الحكم بأنهم لا يستطيعونه ولا يقدرّون عليه ، وإذا نظرنا وجدناها تفصح بأنهم لم يشكوا فى عجزهم عن معارضته والإتيان بمثله ،

(١) هذه اللفظة فى الأصل غير واضحة ، وهى بين يجعلون ويجهلون وقد رجحنا الأخيرة .

(٢) ترد هذه الفقرة فى البيان والتبيين ط هارون ٢٩/٣ بخلاف يسير ، وفى النصين غموض فى الكلمة الواردة بعد « وما لا يزدوج » وقد جاءت فى النسخة التى اعتمد عليها الناشر هكذا : « فعنا العلم أن ذلك » - وقد أشار فى هامشة إلى رواية تتفق وما نقله عبد القاهر هنا .

ولم تحدثهم أنفسهم بأن لهم إلى ذلك سبيلا على وجه من الوجوه ؛ أما الأحوال فدلّت من حيث كان المتعارف من عادات الناس التي لا تختلف ، وطبائعهم التي لا تتبدل أن لا يسلموا لخصومهم الفضيلة . وهم يجدون سبيلا إلى دفعها ، ولا ينتحلون العجز وهم يستطيعون قهرهم والظهور عليهم . كيف وأن الشاعر أو الخطيب أو الكاتب يبلغه أن بأقصى الإقليم الذي هو فيه من يباي^(١) بنفسه ، ويدل بشعر يقوله أو خطبة يقوم بها أو رسالة يعملها ، فيدخله من الأنفة والحمية ما يدعوه إلى معارضته ، وإلى أن يظهر ما عنده من الفضل . ويبذل ما لديه من المنة . حتى إنه ليتوصل إلى أن يكتب إليه . وأن يعرض كلامه عليه ببعض العلل وبنوع من التمثل ، هذا وهو لم ير ذلك الإنسان قط . ولم يكن منه إليه ما يهز ويحرك ويهيج على تلك المعارضة . ويدعو إلى ذلك التعرض . وإن كان المدعى ذلك بمراى منه ومسمع كان ذلك أدعى له إلى مباراته وإلى إظهار ما عنده . وإلى أن يعرف الناس أنه لا يقصر عنه ، أو أنه منه أفضل ؛ فإن انضاف إلى ذلك أن يدعوه الرجل إلى مما تنته ويحركه لمقاولته ، فذلك الذي يسهر ليله ويسلبه القرار ، حتى يستفرغ مجهوده في جوابه ، ويبلغ أقصى الحد في مناقضته . وقد عرفت قصة جرير والفرزدق ، وكل شاعرين جمعهما عصر ، ثم عرض بينهما ما يهيج على المفاولة . ويدعو إلى المفاخرة والمنافرة ، كيف جد كل واحد منهما في مغالبة الآخر . وكيف جعل ذلك همه وكده وقصر عليه دهره ، هذا وليس به ولا يخشى إلا أن يُقضى لصاحبه بأنه أشعر منه ، وأن خاطره أحمَد وقوافيه أشرد . لا ينازعه ملكا ولا يفتات عليه بغلبته له حقاً ، ولا يلزمه به أتاوة ، ولا يضرب عليه ضريبة .

وإذا كان هذا واجباً بين نفسين لا يروم أحدهما من مباهاة صاحبه إلا ما يجرى على الألسن من ذكره بالفضل فقط ، فكيف يجوز أن يظهر في صميم العرب ، وفي مثل قريش ذوى الأنفس الأبوية والهمم العلية ، والأنفة والحمية ، من يدعى النبوة ، ويخبر أنه مبعوث من الله تعالى إلى الخلق كافة ، وأنه بشير بالجنة ونذير بالنار ، وأنه قد نسخ به كل شريعة تقدمته ، ودين دان به الناس شرقاً وغرباً ، وأنه خاتم النبيين ، وأنه لا نبي بعده ، إلى آخر ما صدع به صلى الله عليه وسلم ثم يقول : وحجتى أن الله تعالى قد أنزل على كتاباً عربياً مبيناً ، تعرفون ألفاظه وتفهمون معانيه ، إلا أنكم لا تقدرُونَ على أن تأتوا بمثله ولا بعشر سور منه ، ولا بسورة واحدة ، ولو جهدتم جهدكم واجتمع معكم الجن والإنس ، ثم لا تدعهم نفوسهم إلى أن يعارضوه ويبينوا سرفه في دعواه ، مع إمكان ذلك ومع أنهم لم يسمعوا إلا ما عندهم مثله أو قريب منه ؟ هذا وقد بلغ بهم الغيظ. من مقالته ومن الذى ادعاه حداً تركوا معه أحلامهم الراجحة ، وخرجوا له عن طاعة عقولهم الفاضلة ، حتى واجهوه بكل قبيح ، ولقوه بكل أذى ومكروه ، ووقفوا له بكل طريق ، وكادوه وكُلُّ من تبعه بضروب المكايده ، وأرادوه بأنواع الشر . وهل سمع قط. بنى عقل ومسكة استطاع أن يخرس خصماً له قد اشتط. في دعواه بكلمة يجيبه بها ، فترك ذلك إلى أمور يسفه فيها وينسب معها إلى ضيق النزع والعجز ، وإلى أنه مغلوب قد أعوزته الحيلة وعز عليه المخلص ، أم هل عرف في مجرى العادات وفي دواعى النفوس ومبنى الطبائع أن يدع الرجل ذو اللب حجته على خصمه ، فلا يذكرها ولا يفصح بها ولا يعجل عن وجهها ولا يريه الغلط. فيما قال ، والكذب فيما ادعى ، ولا يدعى أن ذلك عنده وأنه مستطيع له ، بل يجعل

أول جوابه له ومعارضته إياه التسرع إليه والسفه عليه ، والإقدام على قطع رحمه ، وعلى الإفراط في أذاه ؟ أم هل يجوز أن يخرج خارج من الناس على قوم لهم رياضة ، ولهم دين ونحلة فيؤلب عليهم الناس ، ويدبر في إخراجهم من ديارهم وأموالهم ، وفي قتل صناديدهم وكبارهم ، وسبي ذرارهم وأولادهم ، وعدته التي يجد بها السبيل إلى تألف من يتألفه ، ودعاء من يدعوه ، دعوى له إذا هي أبطلت بطل أمره كله وانتقض عليه تدبيره ، ثم لا يعرض له في تلك الدعوى ولا يشتغل بإبطالها ، مع إمكان ذلك ومع أنه ليس بمتعذر . ولا ممتنع ؟ . وهل مثل هذا إلا مثل رجل عرض له خصم من حيث لم يحتسبه ، فادعى عليه دعوى إن هي سمعت كان منها على خطرفي ماله ونفسه ، فأحضر بينة على دعواه تلك ، وعند هذا المدعى عليه ما يبطل تلك البينة أو يعارضها . وما يحول على الجملة بينه وبين تنفيذ دعواه . فيدع إظهار ذلك والاحتجاج به ، ويضرب عنه جملة ، ويدعه وما يريد من إحكام أمره وإتمامه ، ثم يصير الحال بينهما إلى المحاربة وإلى الإخطار بالمهج والنفوس فيطاوله الحرب ، ويقتل فيها أولاده وأعزته ، وينهك عشيرته ويغنى أمواله : ولا يقع له في أثناء تلك الحال أن يرجع إلى القاضى الذى قضى لخصمه . ولا إلى ^(١) القوم الذين سمعوا منه وتصوروه بصورة المحق فيقول : لقد كانت عندي - حين ادعى ما ادعى - بينة على فساد دعواه وعلى كذب شهوده . قد تركتها تهاوناً بأمره ، أو أنسيته ، أو منع مانع دون عرضها ، وما هي هذه قد جئتم بها فانظروا فيها لتعلموا أنكم قد غررتم ؟ ومعلوم بالضرورة أن هذا الرجل لو كان من المجانين لما صح أن يفعل ذلك ، فكيف بقوم هم أرجح أدل زمانهم عقولا ، وأكملهم معرفة

(١) في الأصل كلمتان غامضتان أثبتناه آخرهما إلى الرسم والمعنى .

وأجزلهم رأياً ، وأثقبهم بصيرة ؟ فهذه دلالة الأحوال .

وأما دلالة الأقوال فكثيرة . منها حديث ابن المغيرة روى أنه جاء حتى أتى قريشاً فقال : إن الناس يجتمعون غداً بالموسم ، وقد فشا أمر هذا الرجل في الناس فهم سائلوكم عنه فماذا تردون عليهم ؟ فقالوا مجنون يخنق ؛ فقال : يأتونه فيكلمونه فيجدونه صحيحاً فصيحاً عادلاً فيكذبونكم ! قالوا : نقول هو شاعر . قال : هم العرب ، وقد رروا الشعر . وفيهم الشعراء ، وقوله ليس يشبه الشعر . فيكذبونكم ! . قالوا نقول : هو كاهن قال : إنهم لقوا الكهان فإذا سمعوا قوله لم يجدوه يشبه الكهنة . فيكذبونكم ! . ثم انصرف إلى منزله ، فقالوا : صبأ الوليد - يعنون أسلم - ولئن صبأ لا يبقى أحد إلا صبأ ، فقال لهم ابن أخيه أبو جهل بن هشام بن المغيرة : أنا أكفيكموه . قال فأتاه محزوناً فقال : مالك يا ابن أخ ؟ قال : هذه قريش تجمع لك صدقة يتصدقون بها عليك . نستعين بها على كبرك وحاجتك . قال : أولست أكثر قريش مالا ؟ ! . قال : بلى ولكنهم يزعمون أنك صبأت لتصيب من فضل طعام محمد وأصحابه . قال : والله ما يشبعون من الطعام فكيف يكون لهم فضول ؟ ! . ثم أتى قريشاً فقال . أتزعمون أنني صبأت ولعمري ما صبأت . إنكم قلتم : محمد مجنون . وقد ولد بين أظهركم لم يغب عنكم ليلة ولا يوماً ، فهل رأيتموه يخنق قط . ؟ ، فكيف يكون مجنوناً ولم يخنق قط . ؟ . وقلتم : شاعر ؟ وأنتم شعراء فهل أحد منكم يقول ما يقول ؟ . وقلتم : كاهن . فهل حدثكم محمد في شيء يكون في غد إلا أن يقول إن شاء الله ! ، قالوا : فكيف تقول يا أبا المغيرة ؟ قال : أقول هو ساحر ؛ فقالوا : وأي شيء السحر ؟ قال : شيء يكون ببابل . من حذقه فرق بين الرجل وامرأته والرجل وأخيه [أليس مما تعلمون] أن محمداً فرق بين

فلان وفلانة زوجته ، وبين فلان وابنه . وبين فلان وأخيه . وبين فلان ومواليه . فلا ينفعهم ولا يلتفت إليهم ولا يأتيهم ؟ قالوا : بلى . فاجتمع رأيهم على أن يقولوا إنه ساحر ، وأن يردوا الناس عنه بهذا القول . وانصرف ؛ فمر بأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم منطلقاً إلى رجله . وهم جلوس في المسجد فقالوا : هل لك يا أبا المغيرة إلى خير ؟ فرجع إليهم فقال : ماذلك الخير ؟ فقالوا : التوحيد . قال : ما يقول صاحبكم إلا سحراً وما هو إلا قول البشر يرويه عن غيره . وعبس في وجوههم وبسر . ثم أدبر إلى أهله مكذباً . واستكبر عن حديثهم الذي قالوا له وعن الإيمان . فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ ^(١) الآية . ومنه ما رواه محمد بن كعب القرظي قال : حدثت أن عتبة بن ربيعة - وكان سيداً حليماً - قال يوماً : ألا أقوم إلى محمد فأكلمه فأعرض عليه أموراً لعله أن يقبل منها بعضها فنعطيه أيها شاء ؟ وذلك حين أسلم حمزة رضى الله عنه ، ورأوا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يكثرون ، قالوا : بلى يا أبا الوليد ! فقام إليه - وهو صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد وحده - فقال : يا ابن أخي ! إنك منا حيث علمت من السطة في العشيرة . والمكان في النسب ، وإنك أتيت قومك بأمر عظيم . فرقت بين جماعتهم وسفهت أحلامهم . وعبت آلهتهم ، وكفرت من مضى من آبائهم . فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك أن تقبل منها بعضها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قل . قال : إن كنت إنما تريد المال بما جئت به من هذا القول ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا . وإن كنت تريد

شرفاً سَوْدَنَّاكَ حَتَّى لَا نَقْطَعَ أَمْرًا دُونَكَ ، وَإِنْ كُنْتَ تَرِيدُ بِهِ مَلَكًا مَلَكْنَاكَ عَلَيْنَا . وَإِنْ كَانَ هَذَا الَّذِي بِكَ رِئِيًّا لَا تَسْتَطِيعُ رَدَهُ عَنْ نَفْسِكَ طَلَبْنَا لَكَ الطَّبَّ وَبَدَلْنَا فِيهِ أَمْوَالَنَا حَتَّى نَبْرِثَكَ مِنْهُ ، فَإِنَّهُ رُبَّمَا غَلَبَ التَّابِعَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يَدَاوِيَ مِنْهُ . أَوْ لَعَلَّ هَذَا شَعْرُ جَاشٍ بِهِ صَدْرُكَ . فَإِنَّكُمْ لَعَمْرِي بَنَى عَبْدُ الْمُطَلِّبِ تَقْدِرُونَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى مَا لَا نَقْدِرُ عَلَيْهِ ؛ حَتَّى إِذَا فَرَّغَ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَوْقَدْ فَرَّغْتَ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : فَاسْمَعْ مِنِّي ، قَالَ : قُل . قَالَ : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، حَمْدُ تَنْزِيلٍ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا . فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾^(١) ثُمَّ مَضَى فِيهَا يَقْرَؤُهَا . فَلَمَّا سَمِعَهَا عَتَبَةُ أَنْصَتَ لَهُ ، وَأَلْقَى يَدَيْهِ خَلْفَ ظَهْرِهِ مُعْتَمِدًا عَلَيْهِمَا ، يَسْتَمِعُ مِنْهُ حَتَّى انْتَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى السَّجْدَةِ مِنْهَا فَسَجَدَ . ثُمَّ قَالَ لَهُ : قَدْ سَمِعْتَ مَا سَمِعْتَ فَأَنْتَ وَذَاكَ ! . فَقَامَ عَتَبَةُ إِلَى أَصْحَابِهِ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ، لَقَدْ جَاءَكُمْ أَبُو الْوَلِيدِ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي ذَهَبَ بِهِ ، فَلَمَّا جَلَسَ قَالُوا مَا وَرَاءَكَ ، قَالَ : وَرَأَيْتُ أَنِّي سَمِعْتُ قَوْلًا وَاللَّهِ مَا سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ قَطُّ . وَمَا هُوَ بِالشَّعْرِ وَلَا السَّحَرِ وَلَا الْكُهَانَةِ . يَامَعْشَرَ قُرَيْشٍ أَطِيعُونِي . خَلُّوا بَيْنَ هَذَا الرَّجُلِ وَبَيْنَ مَا هُوَ فِيهِ وَاعْتَزِلُوهُ . فَوَاللَّهِ لَيَكُونَنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي سَمِعْتُ نَبَأًا ؛ فَإِنْ تُصِيبُهُ الْعَرَبُ فَقَدْ كُفِّيتُمُوهُ بِغَيْرِكُمْ^(٢) . وَإِنْ يَظْهَرُهُ عَلَى الْعَرَبِ بِهِ فَمَلِكُهُ مَلِكُكُمْ وَكُنْتُمْ أَسْعَدَ النَّاسِ بِهِ . قَالُوا سَحَرُكَ بِلِسَانِهِ ! قَالَ : هَذَا رَأْيِي فَاصْنَعُوا مَا بَدَالَكُمْ . وَمِنْهُ مَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ فِي سَبَبِ إِسْلَامِهِ : رَوَى أَنَّهُ قَالَ : قَالَ لِي أَخِي أَنَيْسٌ : إِنْ لِي حَاجَةٌ إِلَى مَكَّةَ ، فَانْطَلِقْ فَرَاثَ ، فَقُلْتُ : مَا حَبْسُكَ ؟ قَالَ : لَقِيتُ رَجُلًا [يَقُولُ] إِنْ اللَّهَ تَعَالَى أَرْسَلَهُ .

(١) (فصلت ١/٤١ - ٢) .

(٢) فِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ اضْطِرَابٌ وَلَعَلَّهَا « فَإِنْ تُصِيبُهُ غَيْرُ الْعَرَبِ » .

فقلت : فما يقول الناس ؟ . قال : يقولون شاعر ساحر كاهن . قال أبو ذر : وكان أنيس أحد الشعراء قال : تالله لقد وضعت قوله على أقرء^(١) الشعر فلم يلتئم على لسان أحد ، ولقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم . والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون . ومن ذلك ما روى أن الوليد بن عقبة أثنى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : اقرأ . فقرأ عليه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾^(٢) فقال : أعد ، فأعاد ، فقال : والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة . وإن أسفله لمُعَرِّقٌ^(٣) ، وإن أعلاه لمثمر ، وما يقرئ هذا بشراً . واعلم أنه لا يجوز أن يقال في هذا وشبهه إنه لا يكون دليلاً حتى يكون من قول المشركين بعضهم لبعض حين خلوا بأنفسهم - فتفاوضوا وتجاوزوا وأفضى بعضهم بذات نفسه إلى بعض ؛ وإن كان منه من كلام المؤمنين ، أو ممن قاله ثم آمن ، فإنه لا يصح الاحتجاج به في حكم الجدل من حيث يصير كأنك تحتج على الخصم برأى تراه أنت . وبقول أنت تقوله . وذلك أنه إنما يمتنع أن يدل إذا صدر القول مصدر الدعوى والشئ يدفعه الخصم وينكره ، فأما ما كان مخرجه مخرج التنبيه على أمر يعرفه ذوو الخبرة ، وأطلقه قائله إطلاق الواثق بأنه معلوم للجميع ، وأنه ليس من بصير يعرف مقادير الفضل والنقص إلا وهو يحوج إلى تسليمه والاعتراف به شاء أم أبى فهو دلائل بكل حال ؛ ومن قول كل قائل ، وحجة من غير مثنوية ، ومن غير أن ينظروا إلى قائله أوافق أم مخالف ، ذلك لأن الدلالة ليست من نفس القول وذات الصفة ، بل في مصدرهما وفي أن أخرجا مخرج

(١) الأقرء القوافي ، واحده قرء .

(٢) [التحل ١٦/٩٠] .

(٣) في رواية أخرى لم يذق .

لإخبار عن أمر هو كالشيء البادى للعيون . لا يُعمل أحد بصره إلاّ رآه .
 إذا رأينا الأحوال والأقوال فمنهم قد شهدت كالذى بان باستسلامهم للعجز
 علمهم بالعظيم من الفضل والبائن من المزية . الذى إذا قيس إلى
 ما يستطيعونه ويقدرّون عليه فى ضروب النظم وأنواع التصرف فاته القوت الذى
 ينال . وارتقى إلى حيث لا تطمع إليه الآمال ؛ فقد وجب القطع بأنّه
 عجز ؛ ذلك لأنّه ليس إلاّ أحد أمرين^(١) فيما أن يكونوا قد علموا المزية التى
 ذكرنا أنّهم علموها على الصحة . وإما أن يكونوا قد توهّموها فى نظم القرآن
 وليست هى فيه لغلط دخل عليهم . ودعوى الثانى من الأمرين سخف : فإن
 ذلك لو ظن بالواحد منهم لبعد . ذلك لأنّه لا يتصور أن يتوهم العاقل فى
 نظم كلام - جلّ مناه ومنى أصحابه أن يستطيع معارضته وأن يقدر على
 إسكات خصمه المباهى به - أنه قد باغ فى المزية هذا المبلغ العظيم غلطاً
 وسهواً ، فكيف ، بأن يشتمل هذا الغلط . كلّهم ويدخل على كافتهم ؟ !
 وأى عقل يرضى من صاحبه بأن يتوهم عليهم مثل هذا من الغلط . وهم من
 إذا ذاق الكلام عرف قائله من قبل أن يذكر ؛ ويسمع أحدهم البيت قد
 استرفده الشاعر فأدخله فى أثناء شعر له ، فيعرف موضعه وينبه عليه كما
 قال الفرزدق لذى الرمة^(٢) : أهذا شعرك ؟ . هذا شعرك لأكه أشدّ لحيين
 منك . إلى ضروب من دقيق المعرفة يقل هذا فى جنبها ، وإذا لم يصح الغلط
 عليهم ، ولم يجز أن يدعى أنه كان فى زمانهم من كان بالأمر أعلم ، وبالذى
 وقع التحدى إليه أقوم ، فقد زالت الشبهة فى كونه معجزاً له .

وإن قالوا : فإن هاهنا أمراً آخر ، وهو ما علمنا من تقديمهم شعراء

(١) فى الأصل : (ليس أحد الأمرين) .

(٢) راجع ما سبق عن هذه القصة فى رسالة الخطايب .

الجاهلية على أنفسهم . وإقرارهم لهم بالفضل وإجماعهم في امرئ القيس وزهير والنابعة والأعشى أنهم أشعر العرب . وإذا كان ذلك كذلك فمن أين لنا أن نعلم أنهم لم يكونوا بحيث لو تحدوا إلى معارضة القرآن لقاموا بها واستطاعوها !

قيل لهم : هذا الفصل على ما فيه لا يقدر في موضع الحجة . وذلك أنهم كانوا — كما لا يخفى — يروون أشعار الجاهليين وخطبهم . ويعرفون مقاديرهم في الفصاحة معرفة من لا تُشكّلُ جهات الفضل عليه : فلو كانوا يرون فيما رويوا مزية على القرآن . أو رأوه قريباً منه . أو بحيث يجوز أن يعارض بمثله . أو يقع لهم إذا قاسوا أو وازنوا أن هذا الذي تحدوا إلى معارضته لو تحدى إليه من قبلهم لاستطاعوا أن يأتوا بمثله . لكانوا يدعون ذلك ويذكرونه . ولو ذكروه لذكر عنهم . ومحال إذا رجعنا إلى أنفسنا واستشفعنا حال الناس فيما جبلوا عليه . أن يكونوا قد عرفوا لما تحدوا إليه وقرعوا بالعجز عنه شبهاً ونظماً . ثم يتلى عليهم : ﴿ قُلْ لَّيْسَ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجَنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾^(١) فلا يزيدون في جوابه على الصمت . ولا يقولون : لقد رويانا لمن تقدم ما علمت وعلمنا أنه لا يقصر [عما] أتيت به . فمن أين استعجزت أن تدعى هذه الدعوى ؟ . فإذا كان من المعلوم ضرورة أنهم لم يقولوا ذلك ، ولا رأوا أن يقولوه . ولو على سبيل الدفع والتلبيس والشغب بالباطل ، بل كانوا بين أمرين : إما أن يخبروا عن أنفسهم بالعجز والقصور ، وذلك حين يخلو بعضهم ببعض ، وكان الحال حال تصادق ، وإما أن

يتعلقوا بما لا يتعلق به إلا من أعوزته الحيلة ، ومن (فعل) ^(١) بالحجة من نسبته إلى السحر تارة ، وإلى أنه مأخوذ من فلان وفلان آخر ، يصمون أقواماً مجهولين لا يعرفون بعلم ، ولا يُظن بهم أن عندهم علماً ليس عند غيرهم ، ثبت أنهم قد كانوا علموا أن صورة أولئك الأوائل صورتهم ، وأن التقدير فيهم أنهم كانوا في زمان النبي صلى الله عليه وسلم - ثم تحدوا إلى معارضته - لكنوا في مثل حال هؤلاء الكائنين في زمانه حالهم ، وإذا كان هذا هكذا فقد انتفى الشك ، وحصل اليقين الذي تسكن معه النفس ، ويطمئن عنده القلب أنه معجز ناقض للعادة ، وأنه في معنى قلب العصا حية ، وإحياء الموتى في ظهور الحجة به على الخلق كافة ، وبأن أن قد سعاد المؤمنين وخسر المبطلون . والحمد لله رب العالمين على أن هدانا لدينه وأنار قلوبنا ببرهانه ودليله ، وإياه جل وعز نسأل التثبيت على ما هدى له ، وإتمام النعمة بإدامة ما خوله ، بفضلته ومنه .

فصل

واعلم أن هاهنا باباً من التلبيس أنت تجده يدور في أنفس قوم من الأشقياء ، وتراهم يومئون إليه ، وهمسون به ويستهوون الغر الغبي بذكره ، وهو قولهم : قد جرت العادة بأن يبقى في الزمان من يفوت أهله حتى يسلموا له ، وحتى لا يطمع أحد في مداناته . وحتى ليقع ^(٢) الإجماع فيه أنه الفرد

(١) هكذا في الأصل وقد وضعت الكلمة بين قوسين ولعلها أنفجيم .

(٢) في الأصل : « حتى لا يقع » ، والنسب هنا غير مستقيم مع السياق .

الذى لا ينزاع . ثم يذكرون امرأ القيس والشعراء الذين قدموا على من كان معهم فى أعصارهم . وربما ذكروا الجاحظ . وكل مذكور بأنه كان أفضل من كان فى عصره . ولهم فى هذا الباب خبط . وتخليط . لا إلى غاية . وهى نفثة نفثها الشيطان فيهم . وإنما أتوا من سوء تدبيرهم لما يسمعون . وتسرعهم إلى الاعتراض قبل تمام العلم بالدليل ؛ وذلك أن الشرط . فى المزية الناقضة للعادة أن يبلغ الأمر فيها إلى حيث يبهز ويقهر . حتى تنقطع الأطماع عن المعارضة . وتخرس الألسن عن دعوى المداناة . وحتى لاتحدث نفسٌ صاحبها بأن يتحدى . ولا يجول فى خلد أن الإتيان بمثله يمكن . وحتى يكون يأسهم منه وإحساسهم بالعجز عنه فى بعضه مثل ذلك فى كله .

وليت شعرى من هذا الذى سلم لهم أنه كان فى وقت من الأوقات من بلغ أمره فى المزية وفى العلو على أهل زمانه هذا المبلغ ، وانتهى إلى هذا الحد ! ، إن قيل امرؤ القيس . فقد كان فى وقته من يباريه ويمتنه . بل لا يتحاشى من أن يدعى الفضل عليه : فقد عرفنا حديث علقمة الفحل ، وأنه لما قال امرؤ القيس - وقد تناشدا - : أيُّنا أشعر . قال : أنا . غير مكترث ولا مبال ؛ حتى قال امرؤ القيس . فقل وانعت فرسك وناقتك . وأقول وأنعت فرسى وناقى . فقال علقمة : إني فاعل . والحكم بينى وبينك المرأة من ورائك - يعنى أم جندب امرأة امرؤ القيس . فقال امرؤ القيس :

خِليّ مرّاً بي على أمّ جُنْدَبِ نُقِضَ لُبَانَاتِ الْفُؤَادِ الْمُعَذَّبِ

وقال علقمة :

ذهبت من الهجران فى كل مذهبٍ ولم يك حَقّاً كلُّ هذا التجنبِ
ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن

وتحاحا إلى المرأة، ففضلت علقمة^(١) .

وجرى بين امرئ القيس والحارث الشكري في تنميته أنصاف الأبيات التي أولها^(٢) :

أحار أريك برقاً هباً وهماً كنار مجوس تستعر استعاراً

ما هو مشهور . حتى قال امرؤ القيس : لا أماتنك^(٣) بعد هذا .

ثم وجدنا الأخبار تدل على خلاف لم يزل بين الناس فيه وفي غيره أي أشعر ؟ . وعلى أي لم يستقر الأمر في تقديمه قراراً يرفع الشك . روى أن أمير المؤمنين علياً - رضوان الله عليه - كان يفطر الناس في شهر رمضان ، فإذا فرغ من العشاء تكلم فأقل وأجز فأبلغ . قال : فاختصم الناس ليلة في أشعر الناس . حتى ارتفعت أصواتهم . فقال رضوان الله عليه لأبي الأسود الدؤلي : قل يا أبا الأسود - وكان يتعصب لأبي دؤاد - فقال : أشعرهم الذي يقول :

ولقد أغتدي يدافع ركني أخوذى ذو ميعة إضريح^(٤)
مخلط مزبد مكر مفـر منفع مطرح سبوح خروج
سلهب شرحب كان رماحاً حملته وفي السراة دموج^(٥)

فأقبل أمير المؤمنين - رضوان الله عليه - على الناس فقال : كل شعرائكم محسن ، ولو جمعهم زمان واحد وغاية واحدة ومذهب واحد في القول لعلمنا

(١) سبق أن وردت هاتان القصتان في رسالة الخطابي ، هذا وفي الأصل هامش - لعله من الناسخ - بين وجه تفصيل علقمة على امرئ القيس .

(٢) هنا في الأصل هامش يفسر الماتنة بأن يقول أحد الشاعرين بيتاً ويقول الآخر بيتاً كأنهما يمتدان إلى غاية .

(٤) حاذ ساق ، وأخوذى حسن السوق ، والإضريح : الخز الأحمر .

(٥) سلهب فرس طويل ، والسراة الظهر ، ودموج متداخل بمضه في بعض .

أيهم أسبق إلى ذلك ، وكلهم قد أصاب الذي أراد وأحسن فيه ، وإن يكن أحدهم أفضل فالذي لم يقل رغبة ولا رهبة ؛ امرؤ القيس بن حجر ، كان أصحهم بادرة وأجودهم نادرة^(١) .

وعن ابن عباس أنه سأل الحطيئة : من أشعر الناس من الماضين والباقيين ؟

فقال : إذن من الماضين فهو الذي يتمول :

ومن يجعل المعروف من دُونِ عِرْضِهِ يفرُّه ومن لا يتَّقِ الشَّتْمَ يُشْتَمَ
وما الذي يقول :

وَلَسْتُ بِمُسْتَبْقٍ أَنَا لَا تَلُمَّهُ عَلَى شَعْبٍ . أَيْ الرِّجَالِ الْمَهْدَبُ
بدون ذلك . ولكن الضراعة أفسدته كما أفسدت جرولا - يعنى نفسه -
والله يا ابن عباس لولا الجشع والطمع لكنت أشعر الماضين ، فأما الباقيون
فلا أشك أنى أشعرهم^(٢) .

وقال : كان الأوائل لا يفضلون على زهير أحداً في الشعر ويقولون : قد
ظلمه حقه من جملة كالتابغة . قالوا : وعامة أهل الحجاز على ذلك . وعن ابن
عباس أنه قال : سامرت عمر بن الخطاب - رضوان الله عليه - ذات ليلة
فقال : أنشدنى لشاعر الشعراء . فقلت : ومن شاعر الشعراء ؟ قال :
زهير . قلت يا أمير المؤمنين ، ولِمَ كان شاعر الشعراء ؟ قال : لأنه لا يتبع
وحشى الكلام في شعره ، ولا يعاظم بين القول .

وروى عن أبي عبيدة أنه قال : أشعر الناس ثلاثة . امرؤ القيس بن
حجر ، وزهير بن أبي سلمى ، والتابغة الذبياني ، ثم اختلفوا فيهم : فزورت

(١) في هذا القول المنسوب إلى علي طرافة فهو يشير إلى نواح لابد من الاتفاق عليها لتحقيق
المفاضلة ، وهو ينه إلى فكرة الشعر للشعر لا عن رغبة أو رهبة ، وهي فكرة غير مطروقة كثيراً في
النقد العربى القديم ، وراجع تفضيل على لامرؤ القيس في الممعة ط ١٩٢٢ / ١ ٥٩ .

(٢) راجع الخبر في الممعة ١ / ٦١ ويزيد أن ابن عباس قال له : كذلك أنت يا أبا ملكية .

اليمانية تقديمًا لصاحبهم أخبارًا رفعوها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .
وروى عن يحيى بن سليمان الكاتب أنه قال : بعثنى المنصور إلى حماد
الراوية أسأله عن أشعر الناس فأتيتته وقلت : إن أمير المؤمنين يسألك عن
أشعر الناس . فقال : ذاك الأعشى صناجها .

فقد علمنا أن امرأ القيس كان أشعرهم عندهم . وأن تفضيلهم غيره عليه
إنما كان على سبيل المبالغة . وعلى جهة الاستحسان للشيء يتمثل به في
الوقت . ويقع في النفس . وما أشبه ذلك من الأسباب التي يعطى بها
الشاعر أكثر مما يستحق . أليس فيه أنه مما لا يبعد في القياس وأنه مما
يتسع له الاحتمال . وأنه ليس بالقول الذي يعاب والحكم الذي يزرى
بصاحبه . وأن فضله عليهم لم يكن بالفضل الذي يمنع أن يكونوا أكفأ
له ونظراء يسوغ للواحد منهم - ويسوغ هو لنفسه - دعوى مساواته والتصدى
لمباراته ! هذا وفي حاجة المنصور إلى أن يسأل عن أشعر الشعراء - وقد مضى
الدهر بعد الدهر - دليل أن لم يكن الذي روى من تفضيله مجعلاً عليه
من أصله وفنى أول ما قيل . وأنه كان كالرأى يراه قوم وينكره آخرون . وأن
الصورة كانت كالصورة مع جرير والفرزدق . وأبى تمام والبحتري . ذاك
لأنه لو كان القول بأنه أشعر الناس قولاً صدر مصدر الإجماع في أوله ،
وحكماً أطبق عليه الكافة حين حكم به حتى لم يوجد مخالف ، ثم استمر
كذلك إلى زمان المنصور . لكان يكون محالاً أن يخفى عليه حتى يحتاج فيه
إلى سؤال حماد . وكان يكون كذلك بعيداً من حماد أن يبعث إليه مثل
المنصور ، في هيئته وسلطانه ودقة نظره وشدة مواخذته . يسأله فيجازف له
في الجواب ويقول قولاً لم يقله أحد ، ثم يطلقه إطلاق الشيء الموثوق
بصحته المتقدم في شهرته . فتدبر ذلك .

وزيد الأمر بياناً أنا رأيناهم حين طبقوا الشعراء جعلوا امرأ القيس وزهيراً
والنابغة والأعشى في طبقة^(١)، فأعلموا بذلك أنهم أكفاء ونظراء ، وأن فضلاً
إن كان لواحد منهم فليس بالذى يؤنس الباقين من معاناته ، ومن أن يستطيعوا
التعلق به والجرى في ميدانه ، ويمنعهم أن يدعوا لأنفسهم . أو يدعى لهم أنهم
ساووه في كثير مما قالوه أو دنوا منه ، وأنهم جروا إلى غايته أو كادوا ، وإذا
كان هذا صورة الأمر كان من العمى التعلق به . ومن الخسار الوقوع في
الشبهة بسببه .

وطريقة أخرى في ذلك . وتقرير له على ترتيب آخر . وهو أن الفضل
يجب ، والتقديم إما لمغنى غريب يسبق إليه الشاعر فيستخرجه . أو استعارة
بعيدة يفتن لها . أو لطريقة في النظم يخترعها . ومعلوم أن المعول في دليل
الإعجاز على النظم ، ومعلوم كذلك أن ليس الدليل في المجيء بنظم لم يوجد
من قبل فقط ! بل في ذلك مضموماً إلى أن يبين ذلك النظم من سائر
ما عرف ويعرف من ضروب النظم . وما يعرف أهل العصر من أنفسهم أنهم
يستطيعونه ، البينونة التي لا يعرض معها شك لواحد منهم أنه لا يستطيعه ،
ولا يهتدى لِكُنْهِ أمره ، حتى يكونوا في استشعار اليأس من أن يقدرُوا على
مثله . وما يجرى مجرى المثل له ، على صورة واحدة ، وحتى كأن قلوبهم في
ذلك قد أفرغت في قاب واحد . وإذا كان الأمر كذلك لم يصح لهم تعلق
بشأن امرئ القيس حتى يدعوا أنه سبق إلى نظم بان من كل نظم عرف لمن
قبله ولن كان معه في زمانه البينونة التي ذكرنا أمرها . وهم إذا فعلوا ذلك
ورّطوا أنفسهم في أعظم ما يكون من الجهالة ، من حيث إنه يفضي بهم
إلى أن يدعوا على من كان في زمان النبي صلى الله عليه وسلم من الشعراء والبلغاء

(١) هكذا قبل ابن سلام الجهمي (ت ٥٢٣١هـ) في طبقاته .

قاطبة الجهل بمقادير البلاغة . والنقصان في علمها ، ولأنفسهم الزيادة عليهم وأن يكونوا قد استدركوا في نظم امرئ القيس مزية لم تعلمها قريش والعرب قاطبة ؛ ذلك لما مضى آنفاً من أن محالاً أن يكون معهم وبين أيديهم نظم يعرفون من حاله أنه مساو في الشرف نظم القرآن . ثم لا يذكرونه ولا يحتاجون به على النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو يخبرهم أن الذي أتى به خارج عن طرق البشر ويتجاوز قواهم . هذا ومن يسلم بأن امرأ القيس زاد في البلاغة وشرف النظم على نظم من كان قبله ما إذا اعتبر كان في مزية قدر القرآن على نظم من كان في عصر النبي صلى الله عليه وسلم ؟ ! أم من أين لهم هذه الدعوى ؟ . ألشيء علموه هم في شعره ، بأن لهم عند قياسه إلى شعر من كان قبله كآتي دؤاد والأفود الأودى وغيرهما ؟ . أم لخبر أتاهم فليرونا مكانه ، وليس لهم إلى ذلك سبيل . بل قد أتى الخبر بما يُجهلهم في هذه الدعوى ويكذبهم ، وهو الذي تقدم من قول أبي الأسود وتفضيله أبا دؤاد بحضرة أمير المؤمنين على رضوان الله عليه ، وبعد أن قال له :

قل يا أبا الأسود . أفيمكن أن يكونوا قد عرفوا لامرئ القيس المزية التي ذكروها ، وكان فضله على من تقدمه الفضل الذي قالوه . ثم يقول أمير المؤمنين لأبي الأسود : قل ، بحضرة العرب وبعقب أن تشاجروا في أشعر الناس ، فيؤخره ويقدم أبا دؤاد . ثم لا يسمع نكيراً كالذي يجب فيمن قال الشيء الظاهر بطلانه . وذهب مذهباً لا مساغ له ! وليست تذكر أمثال هذه الزيادة . ويتكلف الجواب عنها أنها تأخذ موضعاً من قلب ذي لب . ولكن الاحتياط . بذكر ما يتوهم أن يستروح إليه الغوى ويغالط . به الجاهل .

وإذا كانت الشبهة في أصل الدين ، كانت كالداء الذي يخشى منه

على الروح ، ويخاف منه على النفس ، فلا يستقل قليله ولا يتهاون باليسير منه ، ولا يتوهم مكان حركة له إلا استقصى النظر فيه وأعيد الكى على نواحيه ، وكالحيوان ذى السم يعاد الحجر على رأسه ، مادام يرى به حس وإن قل .

والله ولي العصمة ، والمسئول أن يجعل كل ما نعيد ونبدى فيه لوجهه بفضله ومنه .

فاعلم أنهم إذا ذكروا - فى تعلقهم بالتوايع ، ومحاولتهم أن يمنعوا من الاستدلال مع تسليم عجز العرب عن معارضة القرآن - من تراخى زمانه عن زمان النبي صلى الله عليه وسلم ، كالجاحظ. وأشباهه كانوا فى ذلك أجهل ، وكان النقض عليهم أسهل . وذلك أن الشرط. فى نقض العادة أن يعم الأزمان كلها ؛ وأن يظهر على مدعى النبوة ما لم يستطعه مملوك قط .

وأما تقدّم واحد من أهل العصر سائرهم ، فى معنى تقدم واحد من أهل مصر من الأمصار غيره ممن يضمه وإياه ذلك المصر ، لا فضل فى ذلك بين الأمصار والأعصار إذا حققت النظر ، إذ ليس بأكثر من أن واحداً زاد على جماعة معدودين فى نوع من الأنواع ، فكان أعلمهم أو أكتبهم أو أشعرهم ، أو أحذقهم فى صنعة . وأبهرهم فى عمل من الأعمال ، وليس ذلك من الإعجاز فى شيء ، إنما المعجز ما علم أنه فوق قوى البشر وقدرهم . إن كان من جنس ما يقع التفاضل فيه من جهة القدر . أو فوق علومهم إن كان من قبيل ما يتفاضل الناس فيه بالعلم والفهم . وإذا كنا نعلم أن استمداد الجاحظ. وأشباه الجاحظ. من كلام العرب والبلغاء الذين تقدموا فى الأزمنة وأنهم فجروا لهم ينباع القول فاستقوا . ومثلوا لهم مثلاً فى البلاغة فاحتدوا ،

إذن لم يبلغوا شأواً ما بلغوا ، ولم يدرك لهم من ضروع القول ما در ؛ ولو أن طباعاً لم تشرب من مائهم ، ولم تُغذَّ بجناهم ، ولم يكن حالهم في الاكتساب منهم ، والاستمداد من ثمار قرائحهم ، وتشتم الذي فاح من روائحهم ، حال النحل التي تغتذى بأريج الأنوار وطيب الأزهار ، وتملاً أجوافها من تلك اللطائف ، ثم تمجها أرياً وتقذفها مذياً : إذن لكان الجاحظ وغير الجاحظ. في عداد عامة زمانهم الذين لم يرووا ، ولم يحفظوا ، ولم ينتبوا كلام الأولين من لدن ظهر الشعر وكانت الخطابة إلى وقتهم الذي هم فيه ، ولم يعرفوا إلا ما يتكلم به آباؤهم وإخوانهم ومساكنهم في الدار والمحلة ، أو كانوا لا يزيدون عليهم إن زادوا إلا بمقدار معلوم . فمن أعظم الجهل وأشد الغبارة أن يجعل تقدم أحدهم لأهل زمانه من باب نقض العادة ، وأن يعدَّ معدَّ المعجز .

فمثل هذه الطبقة إذن مع الصدر الأول ، وقياس هؤلاء الخلف مع أولئك السلف ، ما جرى بين ابن ميادة وعِقال : قال ابن ميادة^(١) :

فَجَرْنَا يَنْسَابِيعَ الْكَلَامِ وَبَحْرَهُ فَاصْبَحَ فِيهِ ذُو الرُّوَايَةِ يَنْسَبِحُ
وَمَا الشَّعْرُ إِلَّا شِعْرُ قَيْسٍ وَخَنْدِفٍ وَقَوْلُ سَوَاهِمٍ كُلْفَةٌ وَتَمْلَحُ

فقال عِقال يجيبه :

أَلَا أَبْلَغَ الرَّمَاحِ نَقْضَ مَقَالَةٍ بِهَا خَطِلَ الرَّمَاحُ أَوْ كَادَ يَمْزُجُ
لَقَدْ خَرَقَ الْحَيُّ الْيَمَانُونَ قَبْلَهُمْ بِحَوَرِ الْكَلَامِ تُسْتَقَى وَهِيَ طُفْحُ
وَقَدْ عَلَّمُوا مَنْ بَعْدَهُمْ فَتَعَلَّمُوا وَهُمْ أَعْرَبُوا هَذَا الْكَلَامَ وَأَوْضَحُوا

(١) ٣٩٣ دلائل الإعجاز ١٣٣١ هـ والبيت الثاني لابن ميادة يروى : « وشعر سواهم » .
وابن ميادة هذا هو الرماح بن أبرد وجدته لأبيه سلمى بنت كعب بن زهير بن أبي سلمى وهو من شعراء الدولتين (معجم الشعراء للرزباني ١٣٥٤ هـ ص ١٢٤ ، ٣١٩) .

فللسابقين الفضلُ لا تنكرونه وليس لمخلوق عليهم تبيح^(١)

وفي الذي قدمت في أول الجزء مفتتح هذه الرسالة من قول خالد بن صفوان : كيف نجاريهم وإنما نحكيهم ، وما أتبعته من قول الجاحظ. في شأن العرب ، وفي أن الاقتداء بهم والأخذ منهم والتسليم لهم ، وأنه لا يستطيع أشعر الناس وأرفعهم في البيان أن يضاهيهم ، ويقول مثل الذي قالوه في جودة السبك والنحت ، وكثرة الماء والرونق - إلا في اليسير - غنى لعاقل وكفاية ، اللهم إلا أن يتجاهل متجاهل فيدعى في الجاحظ. وأمثاله فضلاً لم يدعوه لأنفسهم ، أو يزعم أنهم ضامروا أنفسهم تعصباً للعرب فتشاهدوا لها بأكثر مما عرفوا وتواصفوها بمزية لم يعلموها ، فيفتح بذلك باباً من الركاكة والسخف لا يجاب عن مثله ، ولا يشتغل بالإصغاء إليه ، فضلاً عن الكلام عليه. واعلم أنه إن خيل إلى قوم من جهال الملاحدة أنه كان في المتأخرين من البلغاء كالجاحظ. وأشباه الجاحظ. من استطاع معارضة القرآن فترك خوفاً ، أو أنهم فعلوا ذلك ثم أخفوه ، لم يتصور تخيلهم ذلك حتى يقتحموا هذه الجهالة التي ذكرتها ، أعنى أن يزعموا أنهم كانوا عند أنفسهم أفصح وأبلغ من بلغاء قريش وخطبائهم ، وأن خطيبهم كان أخطب من قس وسحبان ، وشاعرهم أشعر من امرئ القيس ومن كل شاعر كان في العرب ، إلا أنهم صانعوا الناس فمعنوا أنفسهم الفضيلة ونحلوها العرب . وذاك أن محالاً أن يعتقدوا فيهم - أعنى في العرب - ما اعتقده الناس ، وفي أنفسهم ما أفصحوا به من القصور عن مداناتهم ، وشدة الانحطاط. عنهم ، ثم أن يستطيعوا ما لم يستطعه العرب ويكملوا ما لم يكملوا له .

(١) في الدلائل :

فللسابقين الفضل لا تجحدونه وليس لمسبوق عليهم تبيح

ومن هذا الذى يشك فى بطلان دعوى من بلغ بالمصلّى غاية قد انقطع السابق [عنها] ، وزعم فى الناقص الحذق أنه استقل بشيء عيى به المشهود له بالحذق والتقدم ، هذا ما لا يدور فى خلد ، ولا تنعقد له صورة فى وهم ، فاعرف ذلك .

فصل

فى جزء آخر من السؤال ، وهو أن يقولوا : إنا قد عامنا من عادات الناس وطبائعهم أن الواحد منهم تواتيه العبارة ، ويطيعه اللفظ. فى صنف من المعانى ، يتمتع عليه مثل تلك العبارة وذلك اللفظ. فى صنف آخر . فقد يكون الرجل - كما لا يخفى - فى المديح أشعر منه فى المرائى ، وفى الغزل واللهو والصيد أنفذ منه ، فى الحكيم والآداب ، وتراه يستطيع فى الأوصاف والتشبيهات مالا يستطيع مثله فى سائر المعانى ، وترى الكاتب وهو فى الإخوانيات أبلغ منه فى السلطانيات ، وبالعكس . هذا أمر معروف ظاهر لا يشتهه .

وإذا كان كذلك ، فلعل العجز الذى ظهر فيهم عن معارضة القرآن لم يظهر لآلئهم لا يستطيعون مثل ذلك النظم ، ولكن لأنهم لا يستطيعونه فى مثل معانى القرآن .

واعلم أن هذا السؤال يجيء لهم على وجه آخر ، وفى صرة أخرى ، وأنا أستقصيه ، حتى إذا وقع الجواب عنه وقع عن جملته ، وكان الحسم فى الداء كله . وذاك أن يقولوا : إنه لا يصح المطالبة إلا بما يتصور وجوده ، وما يدخل فى حيز الممكن ؛ وإنا لتعلم من حال المعانى أن الشاعر يسبق فى الكثير

منها إلى عبارة يُعَلِّمُ ضرورةً أنها لايجب في ذلك المعنى إلا ما هو دونها ومنحط عنها ، حتى نقضى له بأنه قد غلب عليه واستبد به ، كما قضى الجاحظ لبشار في قوله :

كَأَنَّ مُثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُمُوسِنَا وَاسِيَّافَنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ
فإنه أنشد هذا البيت مع نظائره ثم قال : وهذا المعنى قد غلب عليه
بشار ، كما غلب عنتره على قوله :

وَحَلَا الذَّبَابُ بِهَا، فَلَيْسَ بِبَارِحٍ غَرْدًا كَفَعَلِ الشَّارِبِ الْمُتَرْنِمِ
هَزْجًا يَحْكُ ذِرَاعَهُ بِذِرَاعِهِ قَدْحُ الْمَكْبِ عَلَى الزَّنَادِ الْأَجْدَمِ
قال : فلو أن امرأ القيس عرض لمذهب عنتره في هذا لافتضح ، وليس
ذاك لأن بشاراً وعنتره قد أوتيا في علم النظم جملة ما لم يوت غيرهما ، ولكن
لأنه إذا كان في مكان خبيء فعشر عليه إنسان وأخذه لم يبق لغيره مرام في
ذلك المكان ، وإذا لم يكن في الصدفة إلا جوهرة واحدة فعمد إليها عامد
فشققها عنها استحالة أن يستام هو أو غيره إخراج جوهرة أخرى من تلك
الصدفة . وما هذا سبيله في الشعر كثير لا يخفى على من مارس هذا الشأن .
فمن البين في ذلك قول القطامي^(١) :

فَهْنٌ يَنْبِذَنَّ مِنْ قَوْلٍ يُصْبِنَ بِهِ مَوَاقِعَ الْمَاءِ مِنْ ذِي الْعُلَّةِ الصَّادِي
وقول أبي حازم^(٢) :

كَفَاكَ الشَّيْبُ ذَنْبًا عِنْدَ غَانِيَةٍ وَبِالشَّبَابِ شَفِيعًا أَهْيَا الرَّجُلُ

(١) أورد عبد القاهر هذا البيت في الدلائل في معرض الكلام على متعلقات الفعل وأثرها في معنى الجملة . دلائل الإعجاز ، الطبعة الثانية ص ٤١٣ . وهو من قصيدة مدح بها زفر بن الحارث (راجع طبقات ابن سلام ٥٣٤ والأغاني ١٢٠/٢٠) .

(٢) هذا البيت ثالث ثلاثة أبيات لأبي حازم الباهلي يوردها أبو هلال العسكري في ديوان المغانى ونقل عن ابن الأعرابي قوله إنه لا يعرف في التفجع على الشباب وفي ذم الشيب أحسن منها [ديوان المغانى ١٥٢/٢ ط ١٣٥٢] .

وقول عبد الرحمن بن حسان :

لم تفتتها شمس النهار بشيء غير أن الشباب ليس يدوم

وقول البحتري^(١) :

عريقون في الأفضال يؤتنف الندى اناشيئهم من حيث يؤتنف العمر

ولا ينظر في هذا وأشباهه عارف إلا علم أنه لا يوجد في المعنى الذي يرى مثله . وأن الأمر قد بلغ غايته ، وأن لم يبق للطالب مطلب .

وكذلك السبيل في المنشور من الكلام ، فإنك تجد فيه متى شئت فصولا تعلم أن لن يستطاع في معانيها مثلها ؛ فمما لا يخفى أنه كذلك قول أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضوان الله عليه : « قيصة كل امرئ ما يحسنه » . وقول الحسن رحمه الله عليه : « ما رأيت يقيناً لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت » . ولن تعد ذلك إذا تأملت كلام البلغاء ، ونظرت في الرسائل . ومن أخص شيء بأن يطلب ذلك فيه الكتب المبتدأة الموضوعة في العلوم المستخرجة . فإننا نجد أربابها قد سبقوا في فصول منها إلى ضرب من اللفظ . والنظم أعيا من بعدهم أن يطلبوا مثله ، أو يجيئوا بشبيه له ، فجعلوا لا يزيّدون على أن يحفظوا تلك الفصول على وجوهها ، ويرددوا ألفاظهم فيها على نظامها وكما هي . وذلك ما كان مثل قول سيبويه في أول الكتاب : وأما الفعل فأمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء وبنيت لما مضى وما يكون ولم يقع ، وما هو كائن لم ينقطع^(٢) . لا نعلم أحداً أتى في معنى هذا الكلام بما يوازنه أو يدانيه . أو يقع قريباً منه . ولا يقع في الوهم

(١) الديوان ط هندية سنة ١٩١١ م ١٠/٢ من قصيدة يمدح بها أبا عامر الخضر بن أحمد .

(٢) ونص عبارة سيبويه في أول الكتاب ١ / ٢ : « وأما الفعل فأمثلة أخذت من لفظ أحداث

الأسماء وبنيت لما مضى ولما يكون ولم يقع وما هو كائن لم ينقطع » .

أيضاً أن ذلك يستطاع ، أفلا ترى أنه إنما جاء في معناه قولهم : والفعل ينقسم بأقسام الزمان ، ماض وحاضر ومستقبل . وليس يخفى ضعف هذا في جنبه وقصوره عنه . ومثله قولهم : كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم بشأنه أعنى ، وإن كانا جميعاً يهمانهم ويعنيانهم .

وإذا كان الأمر كذلك لم يمتنع أن يكون سبيل لفظ القرآن ونظمه هذا السبيل . وأن يكون عجزهم عن أن يأتوا بمثله في طريق العجز عما ذكرنا ومثلنا . فهذا جملة ما يجيء لهم في هذا الضرب من التعلق قد استوفيته . وإذا قد عرفته فاسمع الجواب عنه ، فإنه يسقطه عنك دفعة ويحسمه عنك حسماً . واعلم أنهم في هذا كرام قد أضل الهدف ، وبأن قد زال عن القاعدة ، وذلك أنه سؤال لا يتجه حتى يقدر أن التحدى كان إلى أن يعبروا عن معاني القرآن أنفسهم وبأعيانها بلفظ . يشبه لفظه ونظم يوازي نظمهم ، وهذا تقدير باطل ؛ فإن التحدى كان إلى أن يجيئوا في أى معنى شاءوا من المعاني بنظم يبلغ نظم القرآن في الشرف أو يقرب منه ، يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَاتُوا بَعْشَرَ سُورِ مِثْلِهِ مَفْتَرِيَاتٍ ﴾^(١) أى مثله في النظم ، وليكن المعنى مفترى لما قلتم ، فلا إلى المعنى دعيتم ، ولكن إلى النظم ، وإذا كان كذلك كان بيننا أنه بناء على غير أساس ، ورى من غير مرمى . لأنه قياس ما امتنعت فيه المعارضة من جهة وفى شيء مخصوص ، على ما امتنعت معارضته من الجهات كلها وفى الأشياء أجمعها . فلو كان إذا سبق الخليل وسيبويه في معاني النحو إلى ما سبقا إليه من اللفظ . والنظم ، لم يسبق الجاحظ في معانيه التي وضع كتبه لها إلى ما يوازي ذلك ويضاهيه ؛ أو كان بشار إذ سبق في معناه إلى ما سبق إليه لم يوجد مثل نظمهم فيه لشاعر في شيء من

المعاني ، لكان لهم في ذلك متعلق ، فأما وليس من نظم يقال إنه لم يسبق إليه في معنى إلا ويوجد أمثاله أو خير منه في معانٍ آخر فمن أشد المحال وأبينه الاعتراض به . واعلم أنا لو سلمنا لهم الذي ظنوه على بطلانه من أن التحدى كان إلى أن يعبر عن أنفس معاني القرآن بما يشبه لفظه ونظمه لم نعدم الحجاج معهم ، وأن يكون لنا عليهم كلام في الذي تعلقوا به ودفع لهم عنه ، إلا أن العلماء آثروا أن يكون الجواب من الوجه الذي ذكرت ، إذا كان وفق ما نص عليه في التنزيل ، وكان فيه سد الباب وحسم الشبه جملة . ومن ضعف الرأي أن تسلك طريقاً يغمض وقد وجدت السنن اللاحب ، وأن تطاول المريض في علاجك ومعك الدواء الذي يشفى من كذب ، وأن ترخي من خناق الخصم وفي قدرتك ألا يملك نفساً ، ولا يستطيع نطقاً . ثم إن أردت أن تكلمهم على تسليم ذلك فالطريق فيه أن يقال لهم على أول كلامهم حيث قالوا : إنا رأينا الرجل يكون في نوع أشعر ، وعلى حوك اللفظ . والنظم أقدر منه في غيره : إنه ينبغي أن تعلموا أول شيء أنكم حرفتم كلام الناس في هذا عن موضعه ، فإننا تأملنا الحال في تقديمهم الشاعر في فن من الفنون ، وجدناهم قد فعلوا ذلك على معنى أنه قد خرج في معاني ذلك الفن ما لم يُخرجْه غيره ، واتسع لما [لم]^(١) يتسع له من سواه . فإذا قالوا : هو أنسب الناس ، فالمعنى أنه قد فطن في معاني الغزل [وما]^(٢) يدل على شدة الوجد وفرط الحب والهيمن لما لم يفطن له غيره . وكذلك إذا قالوا : أمدح ، وأهجي ، فالمعنى أنه قد اهتم في معاني الزين والشين وفي التحسين والتهجين إلى ما لم يهتد إليه نظراؤه ، ولو كانوا في

(١) زدنا كلمة لم لأن السياق يقتضيها .

(٢) زدنا كلمة وما لأن السياق يقتضيها .

اللفظ والنظم يذهبون لكان محالاً أن يقولوا : هو أنسب ، لأن ذلك في صفة اللفظ والنظم محال . ومن هذا الذى يشك أن لم يكن قول جرير :
ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

أمدح بيت . عند من قال ذلك من أجل لفظه ونظمه . وأن ذلك كان من أجل معناه ؟ . هذا مالا معنى لزيادة القول فيه .

فإن قالوا : هم وإن كانوا قد أرادوا المعنى في قولهم : هذا أمدح ، وذلك أهجى ، وهذا أنسب ، وذلك أوصف ، فإنه لن تتسع المعاني حتى تتسع الألفاظ . ولن تقع مواقعها المؤثرة حتى يحسن النظم ، وإذا كان كذلك موضعنا منه بحاله^(١) ، ثم ليس بمنكر ولا مجهول أن يكون لفظ . الشاعر ونظمه إذا تعاطى المدح أحسن وأفضل منهما إذا هو هجا أو نسب .

قيل : إنا ندع النزاع في هذا ونسلمه لكم ، فأخبرونا عن معاني القرآن^(٢) ؛ أمى صنف واحد أم أصناف ؟ فإن قلتم : صنف واحد تجاهلتم ، فقد علمنا الحجج والبراهين . والحكم والآداب . والترغيب والترهيب ، والوعد والوعيد . والوصف والتشبيه والأمثال ، وذكر الأمم والقرون واقتصاص أحوالهم ، والنبأ عما جرى بينهم وبين الأنبياء عليهم السلام ، وما لا يحصى ولا يعد .

وإن قلتم : هي أصناف كما لا بد منه ، قيل لكم : فقد كان ينبغي لشعراء العرب وبلغائها أن يعتمد كل منهم إلى الصنف الذى تنفذ قريحته فيه فيعارضه ، وأن يجعلوا الأمر في ذلك قسمة بينهم . وفي هذا كفاية لمن عقل .

(١) هذه العبارة قلقة مضطربة ولعل بها تصحيفاً .

(٢) في الأصل القرآن وأصلحناها تمثيلاً مع السياق .

وأما قولهم : إنه قد يكون أن يسبق الشاعر في المعنى إلى ضرب من اللفظ. والنظم يعلم أنه لايجيء في ذلك المعنى أبداً إلى ما هو منقطع. عنه ، فإنه ينبغي أن يقال لهم : قد سألنا أن الأمر كما قلتم وعلمتم ، أفعلتم شاعراً أو غير شاعر، عمد إلى مالا يحصى كثرة من المعاني فتأتى له في جميعها لفظ. أو نظم أعيان الناس أن يستطيعوا مثله . أو يجدوه لمن تقدمه ، أم ذلك شيء يتفق للشاعر من كل مائة بيت يقولها في بيت ؟ ولعل [غير] الشاعر على قياس ذلك ، وإذا كان لا بد من الاعتراف بالثاني من الأمرين وهو أن لا يكون إلا نادراً وفي القليل ، فقد ثبت إعجاز القرآن بنفس ما راموا به دفعه ، من حيث كان النظم الذي لا يقدر على مثله قد جاء منه فيما لا يحصى كثرة من المعاني .

وهكذا القول في الفصول التي ذكروا أنه لم يوجب أمثالها في معانيها لأنها لا تستمر ولا تكثر ، ولكنك تجدها كالفصوص الثمينة والوسائط. النفيسة وأفراد الجواهر تعدُّ كثيراً حتى ترى واحداً . فهذا وشبهه من القول - في دفعهم مع تسليم ما ظنوه من أن التحدى كان إلى أن يعبر عن معاني القرآن أنفسها - ممكن غير متعذر ، إلا أن الأول أن يلزم الجدد الظاهر ، وأن لا يجابوا إلى ما قالوه من أن التحدى كان إلى أن يؤتى في أنفس معانيه بنظم ولفظ يشابهه ، ويساويه ، ويجزم لهم القول بأنهم تحدوا إلى أن يجيئوا في أى معنى أرادوا مطلقاً غير مقيد ، وموسعاً عليهم غير مضيق ، بما يشبه نظم القرآن أن يقرب من ذلك .

ومما يُحيل أن يكون التحدى قد كان إلى ما ذكروه ، ومع الشرط. الذي توهموه ، أن العرب قد كانت تعرف المعارضة ما هي وما شرطها ، فلو كان النبي صلى الله عليه وسلم قد عدل بهم في تحديه لهم إلى مالا يطالب بمثله ،

لكان ينبغي أن يقولوا : إنك قد ظلمتنا وشرطت في معارضة الذي جئت به مالا يشترط. ، أو ليس بواجب أن يشترط. ، وهو أن يكون النظم الذي نعارض به في أنفس معاني هذا الذي تحديت إلى معارضته ، فدع عنا هذا الشرط. ثم اطلب ، فإننا نريك حينئذ مما قاله الأولون وقلناه وما نقوله في المستأنف ما يوازي نظم ما جئت به في الشرف والفضل ويضاهيه ، ولا يقصر عنه ، وفي هذا كفاية لمن كانت له أذن تعي وقلب يعقل .

قد تم الذي أردته في جواب سؤاليهم ، وبيان بطلانه بياناً لا يبتنى معه إن شاء الله شك لناظر ، وإذا هو نصح نفسه وأدركى حسه ، ونظر نظرة من يريد الدين ، ويرجو مما عند الله فيما يقول ويعمل وجهه ، تقدس اسمه وإليه تعالى نرغب في أن يجعلنا ممن هذه صفته في كل ما ننتحيه وننظر فيه ، بفضلله ومنه ورحمته ، إنه على ما يشاء قدير .

الحمد لله حق حمده ، والصلاة على رسوله محمد وآله من بعده .

بسم الله الرحمن الرحيم

فصل

في الذي يلزم القائلين بالصرفة

اعلم أن الذي يقع في الظن من حديث القول بالصرفة أن يكون الذي ابتداء القول بها ابتدأه على توهم أن التحدى كان إلى أن يعبر عن أنفس معاني القرآن بمثل لفظه ونظمه ، دون أن يكون قد أطلق لهم وخبروا في المعاني كلها . ذاك لأن في القول بها على غير هذا الوجه أموراً شنيعة ، يبعد أن يرتكبها العاقل ويدخل فيها ، وذاك أنه يلزم عليه أن يكون العرب قد تراجعت حالها في البلاغة والبيان ، وفي جودة النظم وشرف اللفظ . وأن يكونوا قد نقصوا في قرائحهم وأذهانهم ، وعدموا الكثير مما كانوا يستطيعون ، وأن تكون أشعارهم التي قالوها ، والخطب التي قاموا بها - وكل كلام اختلفوا فيه من بعد أن أوحى إلى النبي صلى الله عليه وسلم وتحذوا إلى معارضة القرآن - قاصرة عما سمع منهم من قبل ذلك القصور الشديد ، وأن يكون قد ضاق عليهم في الجملة مجال قد كان يتسع لهم ، ونضبت عنهم موارد قد كانت تغزر ، وخذلتهم قوى قد كانوا يصلون بها ، وأن تكون أشعار شعراء النبي صلى الله عليه وسلم - التي قالوها في مدحه عليه السلام وفي الرد على المشركين - ناقصة متقاصرة عن شعرهم في الجاهلية ، وأن يشك في الذي روى عن شأن حسان من نحو قوله عليه السلام : قل وروح القدس معك . لأنه لا يكون معاناً مؤيداً من عند الله . وهو يعدم مما كان يجده قبل كثيراً ، ويتقاصر أنف حاله عن السالف منها تقاصراً شديداً .

فإن قالوا : إنه نقصان حدث في فصاحتهم من غير أن يشعروا به . قيل لهم : فإن كان الأمر كذلك فلم تقم عليهم حجة ؛ لأنه لا فرق بين أن لا يكونوا قد عدوا شيئاً من الفصاحة التي كانوا يعرفونها لأنفسهم قبل التحدى بالقرآن والدعاء إلى معارضته ، وبين أن يكون قد عدوا ذلك ثم لم يعلموا أنهم قد عدوه ، ذاك لأن الآية بزعمهم إنما كانت في المنع من نظم ولفظ . قد كان لهم ممكناً قبل أن تحدوا . ولا يكون منع حتى يُرام المنوع . ولا يتصور أن يروم الإنسان الشيء ولا يعلمه ، ويقصد في قول له وفعل إلى أن يجيء به على وصف وهو لا يعرف ذلك الوصف ، ولا يتصوره بحال من الأحوال . وإذا جعلناهم لا يعلمون أن كلامهم الذي يتكلمون به اليوم قاصر عن الذي تكلموا به أمس ، وأن قد امتنع عليهم في النظم شيء أكان يواتيهم ، وسلبوا معنى قد كان لهم حاصلًا ، استحال أن يعلموا أن لنظم القرآن فضلاً على كلامهم الذي يسمع منهم ، وعلى النظم الظاهر الباقي لهم ؛ ذاك لأن عذر القائل بالصرقة أن كلامهم قبل أن تحدوا قد كان مثل نظم القرآن ، وموازيًا له ، وفي مبلغه من الفصاحة .

وإذا كان كذلك لم يتصور أن يعلموا أن للقرآن مزية على كلامهم ، وعندهم أن كلامهم باق على ما كان عليه في القديم ، لم ينقص ، ولم يدخله خلل وإذا لم يتصور أن يعلموا أن للقرآن مزية على ما يقولونه ويقدرّون عليه في الرتب ، لم يتصور أن يُحاولوا تلك المزية ، وإذا لم يحاولوها لم يحسوا بالمنع منها والعجز عن نيلها ، وإذا لم يحسوا بالعجز والمنع لم تقم عليهم حجة به . فالذي يعقل إذن مع هذه الحال أن يعتقدوا أنهم قد عارضوا القرآن وتكلموا بما يوازيه ويجرى مجرى المثل له ، من حيث إنه إذا كان عندهم أن كلامهم باق على ما كان عليه في الأصل ، وقبل نزول القرآن ، وكان كلامهم إذ ذاك في حد المثل والمساوى للقرآن ، فواجب مع هذا الاعتقاد أن يعتقدوا أن في جملة

ما يقولونه في الوقت ويقدرّون عليه ما يشبه القرآن ويوازيه .

واعلم أنه يلزمهم أن يقضوا في النبي صلى الله عليه وسلم بما قضوا في العرب من دخول النقص على فصاحتهم ، وتراجع الحال بهم في البيان ، وأن تكون النبوة قد أوجبت أن يمنع شطراً من بيانه ، وكثيراً مما عرف له قبلها من شرف اللفظ وحسن النظم . ذلك لأنهم إذا لم يقولوا ذلك حصل منه أن يكون عليه السلام قد تلا عليهم: ﴿ قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ (١) في حال هو يستطيع فيها أن يجيء بمثل القرآن ويقدر عليه ، ويتكلم ببعض ما يوازيه في شرف اللفظ ، وعلو النظم . اللهم إلا أن يقتحموا جهالة أخرى فيزعموا أنه عليه السلام قد كان في الأصل دونهم في الفصاحة ، وأن الفضل والمزية التي بها كان كلامهم قبل نزول القرآن في مثل لفظه ونظمه قد كان لبلغاء العرب دون النبي صلى الله عليه وسلم ، وإذا قالوا ذلك كانوا قد خرجوا من قبيح القول إلى مثله ، فلم يشك أحد أنه صلى الله عليه وسلم . لم يكن منقوصاً في الفصاحة ، بل الذي أتت به الأخبار أنه صلى الله عليه وسلم كان أفصح العرب .

ومما يلزمهم على أصل المقالة أنه كان ينبغي . إن كانت العرب منعت منزلة (٢) من الفصاحة قد كانوا عليها ، أن يعرفوا ذلك من أنفسهم كما قدمت . ولو عرفوه لكان يكون قد جاء عنهم ذكر ذلك . ولكانوا قد قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : إنا كنا نستطيع قبل هذا الذي جئتنا به . ولكنك قد سحرتنا واحتلت في شيء حال بيننا وبينه ؛ فقد نسبوه إلى السحر في كثير من الأمور كما لا يخفى . وكان أقل ما يجب في ذلك أن يتذكروه فيما بينهم ، ويشكوه

(٢) عبارة الأصل قلقة وقد عدلناها بما يتفق والسياق

(١) [الإسراء / ١٧ / ٨٨] .

البعض إلى البعض ، ويقولوا مالنا قد نقصنا في قرائحنا ، وقد حدث كلول في أذهاننا . فبقى أن لم يُروَ ولم يذكر أنه كان منهم قول في هذا المعنى ، لا ما قل ولا ما كثر ، دليل أنه قول فاسد ، ورأى ليس من آراء ذوى التحصيل .

هذا وفي سياق آية التحدى ما يدل على فساد هذا القول ؛ وذلك أنه لا يقال عن الشيء يُمنعه الإنسان بعد القدرة عليه . وبعد أن كان يكثر مثله منه ، إني قد جئتكم بما لا تقدرون على مثله ، ولو احتشدتم له ودعوتم الإنس والجن إلى نصرتكم فيه ، وإنما يقال إني أُعطيْتُ أن أحول بينكم وبين كلام كنتم تستطيعونه وأمنعكم إياه ، وأن أفحكم عن القول البليغ ، وأعلمكم اللفظ الشريف ، وما شاكل هذا . ونظيره أن يقال للأشداء وذوى الأيد إن الآية أن تعجزوا عن رفع ما كان يسهل عليكم رفعه . وما كان لا يتكأءدكم ، ولا يشغل عليكم^(١) ؛ ثم إنه ليس في العرف ، ولا في المقول أن يقال : لو تعاضدتم واجتمعتم وجمعتم لم تقدروا عليه ، في شيء قد كان الواحد منهم يقدر على مثله ، ويسهل عليه ، ويستقل به ثم يمنعون منه ، وإنما يقال ذلك حيث يراد أن يقال إنكم لم تستطيعوا مثله قط ، ولا تستطيعونه ألبتة ، وعلى وجه من الوجوه ؛ حتى إنكم لو استضفتم إلى قواكم وقدركم التي لكم قوى وقدرًا ، وقد استمددتم من غيركم ، لم تستطيعوه أيضًا ؛ من حيث إنه لا معنى للمعاوضة والمظاهرة^(٢) والمعاونة إلا أن تضم قدرتك إلى قدرة صاحبك . حتى يحصل باجتماع قدرتكما ما لم يكن يحصل . فقد بان إذن أن لا مساغ لحمل الآية على ما ذهبوا إليه ، وأن لا محتمل فيها لذلك على وجه من الوجوه . وظهر به وسائر ما تقدم أن القول بالصرقة - ولا سيما على هذا الوجه - قول في غاية البعد والتهافت ، وأنه

(١) هذا في الأصل كلمة غامضة وقد أثبتناها هكذا تمشياً مع السياق .

(٢) في الأصل : المظاهرة .

من جنس مالا يعذر العاقل في اعتقاده . ولم أقبل - ولا سيما على هذا الوجه - وأنا أعنى أن القول بها على الوجه الأول مساعٍ في الصحة ، ولكني أردت أن فساده كان أظهر والشناعة عليه أكثر ، وإلا فما هما إن أردت البطلان إلا سواء . فإن قلت : فكيف الكلام عليهم إذا ذهبوا في الصرفة إلى الوجه الآخر فزعموا أن التحدى كان أن يأتوا في أنفس معاني القرآن بمثل نظمه ولفظه وما الذي دل على فساد ؟ ؛ فإن على فساد ذلك أدلة منها قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فأتوا بعشر سور مثله مُفْتَرَيَاتٍ ﴾^(١) . وذلك أنا لا نعلم أن المعنى : فأتوا بعشر سور تفترونها أنتم ، وإذا كان المعنى على ذلك فبنا أن ننظر في الافتراء إذا وصف به الكلام ، إلى المعنى يرجع أم إلى اللفظ والنظم ؟ . وقد عرفنا أنه لا يرجع إلا إلى المعنى ، وإذا لم يرجع إلا إلى المعنى كان المراد إن كنتم تزعمون أني قد وضعت القرآن وافتريته ، وجئت به من عند نفسي ، ثم زعمت أنه وحى من الله ، فضعوا أنتم أيضاً عشر سور وافتروا معانيها كما زعمتم أني افتريت معاني القرآن . فإذا كان المراد كذلك ، كان تقديرهم أن التحدى كان أن يعمدوا إلى أنفس معاني القرآن ، فيغيروا منها بلفظ . ونظم يشبه نظمه ولفظه ، خروجاً عن نص التنزيل وتحريفاً له .

وذلك أن حق اللفظ إذا كان المعنى ما قالوه أن يقال : إن زعمتم أني افتريته فأتوا أنتم في معاني هذا المفترى بمثل ماترون من اللفظ . والنظم . يبين ذلك أنه لو قال رجل شعراً فأحسن في لفظه ونظمه وأبلغ ، وكان له خصم يعانده ، فعلم ذلك الخصم أنه لا يجد عليه مغمراً في النظم واللفظ ، فترك ذلك جانباً وتشاغل عنه وجعل يقول : إني رأيتك سرقت معاني شعرك وانتحلتها وأخذتها من هذا وذلك . فقال له الرجل في جواب هذا الكلام : إن كنت قد

سرقت معاني شعري فقل أنت شعراً مثله مسروق المعاني . لم يعقل منه ، إلا أنه يقول : فقل أنت شعراً في معاني أخر تسرقها كما سرقت معاني بزعمك . ولم يحتمل أن يريد : اعمد إلى معاني فقل فيها شعراً مثل شعري ، وإنما يعقل ذلك إذا هو قال : إن كنت قد سرقت معاني شعري فقل أنت في هذه المعاني المسروقة مثل الذي قلت . وانظم فيها الكلام مثل نظمي لكلامي وحبره تحبيرى .

هذه جملة لا تخفى على من عرف مخارج الكلام ، وعلم حق المعنى من اللفظ . وما يُحتمل مما لا يحتمل ، ومنها ما تقدم من أنه لا يقال في الشيء قد كان يكثر مثله من الإنسان ثم منع منه : آيت بمثله ، واجهد جهدك واستعن عليك ، فإنك لا تستطيعه ولو أعانك الجن والإنس . وإنما يقال ذلك في البديع المبتدأ أو الذى لم يسبق إليه ، ولم يوجد مثله قط .

وهذا المعنى وإن كان يلزمهم في الوجهين ، فإنه لهم في هذا الوجه الذى نحن فيه ألزم ، وذلك أن^(١) قولك للرجل يقدر على مثل الشيء اليوم في كثير من الأحوال والأمور ويعوقه عنه عائق في حال واحدة وأمر واحد : لو اجتمع الإنس والجن فأعانوك لم تقدر على مثله ، أبعد وأقبح من قولك ذلك ، وقد كان يقدر عليه في سالف الأزمان ثم منعه جملة وجعل لا يستطيعه ألبتة .

ومنها الأخبار التى جاءت عن العرب في تعظيم شأن القرآن ، وفي وصفه بما وصفوه به من نحو : إن عليه لطلاوة وإن عليه لحلاوة ، وإن أسفله لمعلق وإن أعلاه لمثمر ، وذلك أن محالاً أن يعظموه ، وأن يبهتوا عند سماعه ويستكينوا له ، وهم يرون فيما قالوه وقاله الأولون ما يوازيه ، ويعلمون أنه لم

(١) في الأصل : أنك .

يتعذر عليهم لأنهم لا يستطيعون مثله ، ولكن وجدوا في أنفسهم شبه الآفة والعارض يعرض للإنسان فيمنعه بعض ما كان سهلاً عليه . بل الواجب في مثل هذه الحال أن يقولوا : إن كنا لا نتهياً لنا أن نقول في معاني ما جئت به ما يشبهه ، إنما نأتيك في غيره من المعاني بما شئت وكيف شئت ، بما لا يقصر عنه ولا يكون دونه .

وجملة الأمر أن علم النبوة عندهم والبرهان إنما كان في الصرف والمنع عن الإتيان بمثل نظم القرآن لا في نفس النظم . وإذا كان كذلك فينبغي إذا تعجب المتعجب وأكبر المكابر أن يقصد بتعجبه وإكباره إلى المنع الذي فيه الآية والبرهان لا إلى الممنوع منه . وهذا واضح لا يُشكّل .

فإن قالوا : إنه ليكون أن يستحسن الشاعر الشعر بقوله غيره ويكبر شأنه ، ويرى فيه فضلاً ومزية على ما قاله هو من قبل ، ثم هو لا يأس من أن يقدر على مثله إذا هو جهد نفسه وتعمل له . فنحن نجعل لفظ القرآن ونظمه على هذا السبيل . ونقول : إنهم سمعوا منه ما بهرهم وعظم في نفوسهم ، ولكنهم على حال أنسوا من أنفسهم بأنهم يأتون بمثله إذا هم اجتهدوا ، فحبل بينهم وبين ذلك الاجتهاد ، وأخذوا عن طريقه ومنعوا فضل المنّة التي طمعوا معها في أن يجرؤا إلى تلك الغاية ويبلغوا ذلك المدى [الذي]^(١) أرادوا ، وإذا كنا نعلم أن الشاعر المفلق ربما اعتاص القول عليه حتى يعيا بقافية ، وحتى تنسد عليه المذاهب ، وأن الخطيب المصقع يرتج عليه حتى لا يجد مقالا ، وحتى لا يفيض بكلمة ، لم يكن الذي قلناه وقدرناه بعيداً أن يكون وأن يسهه الجواز ويحتمله الإمكان ! . قيل لهم : إنكم الآن كأنكم

(١) هذه الكلمة ناقصة في الأصل .

أردتم أن تحسّنوا أمركم ، وأن تغطوا على بعض العوار ، وأن تتملّسوا من الذى تُلزمون ، وليس لكم فى ذلك كبير جدوى إذا حقق الأمر ، وإنما هو خداع وضرب من التزويق ؛ وأول ما يدل على بطلان ما قلتم أن الذى عرفنا من حال الناس فيما سبيله ما ذكرتم التضجر والشكوى ، وأن يقولوا : مالنا ، ومن أين دهيّنا؟ وكيف الصورة ؟. إنا وإن كنا نسمع قولاً له فضل ومزية على ما قلناه إنه بالذى ليس ينبغى أن يعجز عنه هكذا حتى لانستطيع فى معارضته ما نرضى ، فلا ندرى أسحرنا أم ماذا كان ؟. ففى أن لم يُرو عنهم شئ من الجنس على وجه من الوجوه دليل أن لا أصل لما توهموه ، وأنه تلفيق باطل . ثم إنه ليس فى العادة أن يدعن الرجل لخصمه ، ويستكين له ويلقى بيده ، ويسكت على تقريره له بالعجز وترديده القول فى ذلك . وقدر ما أظهر من المزية قدر يطمع الإنسان فى مثله ، ويرى أنه يناله إذا هو اجتهد وتعهد ، بل العادة فى مثل هذا أن يدفع العجز عن نفسه ، وأن يجحد الذى عرف لصاحبه من المزية ويتشدد ، كما فعل حسان ، فيدعى فى مساواته وأنه إن كان جرى إلى غاية رأى لنفسه بها تقدماً إنه ليجرى إلى مثلها ، وأن يقول : لا تغلّ ، ولا تفرط ولا تشتط فى دعواك ، فلئن كنت قد نلت بعض السبق إنك لم تبعد المدى بُعد من لا يدانى ولا يشق غباره ، فريداً واكفف من غلوائك .

واعلم أنهم بتمحلهم هذا قد وقعوا فى أمر يوهى قاعدتهم ، ويقدهح فى أصل مقالتهم ، فقد نظروا لأنفسهم من وجه وتركوا النظر لها من آخر . وذاك أن من حق المنع إذا جعل آية وبرهاناً ولا سيما للنبوة أن يكون فى أظهر الأمور ، وأكثرها وجوداً ، وأسهلها على الناس ، وأخلقها بأن تبين لكل راء وسامع أن قد كان منع ، لا أن يكون المنع من خفى لا يعرف إلا بالنظر وإلا يبعد

الفكر ، ومن شيء لم يوجد قط . ولم يعهد ، وإنما يُظن ظناً أنه يجوز أن يكون ، وأن له مدخلا في الإمكان إذا اجتهد المجتهد . هل سُمع قط . أن نبياً أتى قومه فقال : حجّتي عليكم ، والآية في أتى نبيّ إليكم أن تُمنعوا من أمر لم يكن منكم قط . ! وليس يظهر في بادى الرأي وظاهر الأمر أنكم تستطيعونه ، ولكنه موهوم جوازه منكم إذا أنتم كددتم أنفسكم ، وجمعتم مالكم واستفرغتم مجهودكم ، وعادتم الاجتهاد فيه مرة بعد أخرى ؟ ! أم ذلك مالا يقوله عاقل ولا يقدم عليه إلا مجادف لا يدرى ما يقول . !

وإذا كان كذلك ، وكان الذى قالوه من أن المنع كان من نظم لم يوجد منهم قط . ، إلا أنهم أحسوا في أنفسهم أنهم يستطيعونه إذا هم اجتهدوا واستفرغوا الوسع ، بهذه المنزلة . ودخلوا في هذه القضية ، فقد بان أنهم بذلك قد أوهوا قاعدتهم ، وقدحوا في أصل المقالة من حيث جعلوا الآية والبرهان وعلم الرسالة والأمر المعجز للخلق في المنع من شيء لم يوجد قط . ، ولم يعلم أنه كان في حال من الأحوال ، وليس بأكثر من أن ظُنَّ ظناً أنه مما يحتمله الجواز . ويدخل في الإمكان إذا أدمن الطلب ، وكثر فيه التعب ، واستنزفت قوى الاجتهاد ، وأرسلت له الأفكار في كل طريق ، وحشدت إليه الخواطر من كل جهة . وكفى بهذا ضعف رأى : وقلة تحصيل .

فصل

وهذا فصل أختم به .

ينبغي أن يقال لهم : ما هذا الذى أختمت به أنفسكم ، وما هذا التأويل منكم في عجز العرب عن معارضة القرآن ؟ وما دعاكم إليه ؟ ،

وما أردتم منه ؟ ، أأن يكون لكم قول يحكى وتكونوا أمة على حدة أم قد أتاكم في هذا الباب علم لم يأت الناس ؟ ، فإن قالوا آتانا فيه علم ، قيل : أفمن نظّر ذلك العلم أم خبر ؟ فإن قالوا : من نظر ، قيل لهم : فكأنكم تعنون أنكم نظرتم في نظم القرآن ، ونظم كلام العرب ، ووازنتم فوجدتموه لا يزيد إلا بالقدر الذى لو خلّوا والاجتهاد وإعمال الفكر ، ولم تفرق عنهم خواطرم عند القصد إليه ، والصمد له ، لأنّوا بمثله ، فإن قالوا : كذلك نقول ، قيل لهم : فأنتم تدعون الآن أن نظركم في الفصاحة نظر لا يغيب عنه شيء من أمرها ، وأنكم قد أحطتم علماً بأسرارها وأصبحتم ولكم فيها فهم وعلم لم يكن للناس قبلكم . وإن قالوا : عرفنا ذلك بخبر ، قيل : فهاتوا عرفونا ذلك ، وأنّى لهم تعريف ما لم يكن وتثبيت ما لم يوجد ! . ولو كان الناس إذا عنّ لهم القول نظروا في مؤداه ، وتبينوا عاقبته ، وتذكروا وصية الحكماء حين نهوا عن الورود حتى يُعرف الصدر ، وحلّروا أن تجيء أعجاز الأمور بغير ما أوهمت الصدور ، إذا لكفوا البلاء ، ولعدم هذا وأشباهه من فاسد الآراء ، ولكن الذى فى طباع الإنسان من التسرع ، ثم من حسن الظن بنفسه ، والشغف بأن يكون متبوعاً فى رأيه ، إلا أن يخذعه وينسيه أنه موسى بذلك ، ومدعو إليه ، ومحلّز من سوء المغبة إذا هو تركه وقصر فيه ، وهى الآفة لا يسلم منها ، ومن جنائتها إلا من عصم الله . وإليه عز اسمه الرغبة فى أن يوفق للتي هى أهلى ، ويعصم من كل ما يوتغ^(١) الدين ويثام اليقين . إنه ولى ذلك والقادر عليه .

بسم الله الرحمن الرحيم

قول من قال : 1 إنه يجوز أن يقدر الواحد من الناس من بعد انقضاء زمن النبي صلى الله عليه وسلم ومُضِيَ وقت التحدى على أن يأتي بما يشبه القرآن ويكون مثله ، إلا أن ذلك لا يخرج عن أن يكون قد كان معجزاً في زمان النبي صلى الله عليه وسلم ، وحين تحدى العرب إليه 1 قول لا يصح إلا لمن يجعل القرآن معجزاً في نفسه . ويذهب فيه إلى الصرفة .

فأما الذى عليه العلماء من أنه معجز في نفسه ، وأنه في نظمه وتأليفه على وصف لا يهتدى الخلق إلى الإتيان بكلام هو في نظمه وتأليفه على ذلك الوصف ، فلا يصح ألبتة . ذاك . لا فرق بين أن يكون الفعل معجزاً في جنسه كإحياء الموتى ، وبين أن يكون معجزاً لوقوعه على وصف . وإذا كان كذلك فكما أنه محال أن يكون هاهنا إحياء ميت لا من فعل الله . كذلك محال أن يكون هاهنا نظم مثل نظم القرآن لا من فعله تعالى . فهذا هو .

ثم إنه قول إذا نُقِرَّ عنه انكشف عن أمر منكر . وهو إخراج أن يكون وحياً من الله وأن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد تلقاه عن جبريل عليه السلام . والذهاب إلى أن يكون قد كان على سبيل الإلهام ، وكالشئ يلقى في نفس الإنسان ، ويُهْدَى له من طريق الخاطر والهاجس الذى يهجس في القلب . وذلك مما يستعاذ بالله منه ، إنه تطرق للإلحاد والله ولى العصمة والتوفيق .

بسم الله الرحمن الرحيم

فصل

اعلم أن البلاء والداء العياء أن ليس علم الفصاحة ، وتمييزُ بعض الكلام من بعض بالذى تستطيع أن تفهمه من شئت ، ومتى شئت بأن لست تملك من أمرك شيئاً حتى تنظر بمن له طبع إذا قدحته فيرى ، وقلباً إذا أريته رأى ، فأما وصاحبك من لا يرى ما تريه ، ولا يهتدى للذى تهديه ، فأنت معه كالنافخ فى الفحم من غير نار ، وكالملتصم الشم من أخشم . وكما لا يقيم الشعر فى نفس من لا ذوق له ، وكذلك لا يفهم هذا الباب من لم يؤت الآلة التى بها يفهم إلا أنه إنما يكون البلاء إذا ظن العادم لها أنه قد أوتيها ، وأنه ممن يكمل للحكم ويصح منه القضاء ، فجعل يخطئ . ويقول القول لو علم عيه لاستحيا منه .

وأما الذى يحس تأليفه فى نفسه ، ويعلم أنه قد عدم علماً قد أوتيته من سواه ، فأنت منه فى راحة ، وهو رجل عاقل . حماه عقله أن يعدو طوره ، وأن يتكلف ما ليس بأهل له .

وإذا كانت العلوم التى لها أصول معروفة وقوانين مضبوطة قد اشترك الناس فى العلم بها ، واتفقوا على أن البناء عليها ، والرد إليها إذا أخطأ فيها المخطئ ثم أعجب برأيه لم يستطع رده عن هواه ، وصرفه عن الرأى الذى رأى إلا بعد الجهد ، وإلا بعد أن يكون حصيفاً عاقلان ثبتاً إذا نُبّه انتبه ، وإذا قيل إن عليك بقية من النظر وقف وأصغى ، وخشى أن يكون قد غر فاحتاط .

بإسماع ما يقال له ، وأنف من أن يلج من غير بينة ، ويستطيل بغير حجة . وكان من هذا وصفه يعز ، ويقل فكيف بأن يرد الناس عن رأيهم في أمر الفصاحة ، وأصلك الذى تردهم إليه ، وتعلو في محاجتهم عليه ، استشهاد القرآن ، وسَبَر النفوس وفَلَّيْهَا ، وما يعرض فيها من الأدعية عندما تسمع وهم لا يضعون أنفسهم موضع من يرى الرأى ويفتى ، ويقضى إلا وعندهم أنهم ممن صفت قريحته وصح ذوقه وتمت أداته . فإذا لمت لهم : إنكم أتيتهم من أنفسكم ومن أنكم لا تفتنون ، ردوا مثله عليك ، وعابوك ووقعوا فيك وقالوا : لا ، بل قرائحنا أصح ، ونظرنا أصدق ، وحسنا أذكى وإنما الآفة فيكم ، فإنكم جئتم فخيَلتم إلى أنفسكم أمورا لا حاصل لها ، وأوهمكم الهوى والميل أن توجبوا لأحد النظمين المتساويين فضلا عن الآخر ، من غير أن يكون له ذلك الفضل ، فبقى في أيديهم حيث^(١) لا يملك غير التعجب .

فليس الكلام إذا بمنع عنك ، ولا القول بِنافع ، ولا الحجة مسموعة حتى تجد مَنْ فيه عون لك ، ومن إذا أبى عليك أبى ذاك طبعه فرده إليك . وفتح سمعه لك ، ورفع الحجاب بينه وبينك ، وأخذ به إلى حيث أنت ، وصرف ناظره إلى الجهة التى إليها أومأت . فاستبدلَ بالنفار أنسا ، وأراك من بعد الإباء قبولا ، وبالله التوفيق .

(١) هذه اللفظة غير ظاهرة في الأصل .